الباب الثامن

المرأة ذكيّة

الفصل الأول

العقل في الميزان الشرعي

لقد ميّز الله سبحانه وتعالىٰ الإنسان عن غيره من المخلوقات بأن كمَّله بالعقل ، وقد وردت آثار كثيرة تدلُّ علىٰ أفضلية العقل .

من ذلك مارواه عطاء قال : دخل عبد الله بن عباس علىٰ عائشة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ فقال : يا أم المؤمنين! أرأيت الرجل يقلُّ قيامه ويكثر رقاده ، وآخر يكثر قيامه ويقلُّ رقاده ، أيهما أحب إليك ؟

قالت : سألت رسول الله ﷺ كما سألتني عنه فقال : « أحسنهما عقلاً » ، قلت : يا رسول الله أسألك عن عبادتهما .

فقال يا عائشة : « إنما يسئلان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة » .

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعجبوا بإسلام امرىء حتىٰ تعرفوا عقدة عقله » .

ومن ذلك ما رواه وهب بن منبه قال : قال لقمان الحكيم لابنه ذات يوم :

يا بني اعقل عن الله عز وجل ، فإن أعقل الناس عن الله عز وجل أحسنهم عملاً ، وإن الشيطان ليفرُّ من العاقل وما يستطيع أن يكابده ،

يا بني : ما عبد الله بشيء أفضل من العقل[1] .

وقد تكلم القدماء عن حد الذكاء فأجادوا ، ومن ذلك قول بعضهم : حد الذكاء هو سرعة الفهم وحدته ، أو هو جودة حدس من هذه القوة تقع في زمان قصير غير مهمل ، فيعلم الذكي معنىٰ القول عند سماعه .

وأفضل ما يستدل علىٰ عقل العاقل هو أفعاله وأقواله ، وهذا ما شرحه أبو الدرداء رضي الله عنه بقوله : ألا أنبئكم بعلامة العاقل ؟ يتواضع لمن فوقه ، ولا يزدري من دونه ، يمسك الفضل من منطقه ، يخالق الناس بأخلاقهم ويحتجز الإيمان فيما بينه وبين ربه عز وجل ، فهو يمشي في الدنيا بالتقية والكتمان .

وقد نصح لقمان ابنه فقال :

يا بني ما يتم عقل امرىء حتىٰ يكون فيه عشر خصال : الكبر منه مأمون والرشد فيه مأمول ، يصيب من الدنيا القوت وفضل ماله مبذول ، التواضع منه أحب إليه من الشرف ، والذل أحب إليه من العز ، لا يسأم طلب الفقه طول دهره ، ولا يتبرم من طلب الحوائج من قبله ، يستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقل كثير المعروف من نفسه ، والخصلة العاشرة التي بها مجده وأعلىٰ ذكره أن يرىٰ جميع أهل الدنيا خيراً منه وإنه شرُّهم ، وإن رأىٰ خيراً منه سره ذلك وتمنىٰ أن يلحق به ، وإن رأىٰ شراً منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا فهنالك حين استكمل العقل .

لكن هل الذكاء أمرٌ خاص بالذكور دون الإناث ؟! أم هل الإناث أقلُّ ذكاءً من الذكر ؟ أم . . . ؟!

---

(١) وقد فصَّلت القول في ذلك في كتاب : تفكُّر ساعة : ٣٧ـ٥٢ .

من خلال استعراض كثيرٍ من الوقائع والأحداث ، يتبين أن الرجل والمرأة سواء في هذا الأمر فلا يوجد واحد أذكىٰ من الآخر ، بل قد نجد كثيراً من النساء أكثر استخداماً لعقولهن إلىٰ جانب كثيرٍ من الرجال يضيعون عقولهم في الخمر والشهوات و . . . !!

* * *

الفصل الثاني

النساء... والذكاء

* ولو عدنا أدراجنا إلىٰ تاريخ العرب من قبل الإسلام لوجدنا قصصاً كثيرة تتحدث عن ذكاء النساء ، من ذلك مثلاً قصة المثل المعروف (وافق شنٌّ طبقة) والقصة المعروفة (لن يبرح العبدان حتىٰ يُقتلا)[1] .

وأكتفي بنقل قصة رواها العلامة الألوسي يقول فيها[2] :

قال عبد الملك بن عمير : قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة ، فأرسل إلىٰ عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة ، فسمروا عنده ، ثم قال : ليحدثني كل رجل منكم أحدوثة ، وابدأ أنت أبا عمرو ، فقلت : أصلح الله الأمير ، أحديث الحق أم حديث الباطل ؟

قال : بل حديث الحق .

قلت : إن امرأ القيس آلىٰ بأليَّة[3] ألا يتزوج امرأة حتىٰ يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين ، فجعل يخطب النساء ، فإذا سألهنّ عن هذا ، قلن : أربعة عشر .

---

(١) تراجع قصة : ذكاءٌ لا مثيل له : الجزء الأول والثاني للمؤلف .

(٢) كتاب : بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب : ١/٢٨ـ٢٩ .

(٣) أي : أقسم قسماً .

فبينا هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة ، كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فقال لها : يا جارية ، ما ثمانية وأربعة واثنتان ؟

فقالت : أما ثمانية فأطْبَاء[1] الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف[2] الناقة ، وأما اثنتان فثديا المرأة .

فخطبها إلىٰ أبيها ، فزوّجه إياها ، وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال ، فجعل لها ذلك ، وأن يسوق إليها مائة من الإبل ، وعشرة أعبُد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ، ففعل ذلك .

ثم إنه بعث عبداً له إلىٰ المرأة ، وأهدىٰ إليها نحياً ـ وعاءً ـ من السمن ، ونحياً من عسل ، وحُلّة من عَصب[3] ، فنزل العبدُ ببعض المياه فنشر الحلّة ولبسه ، فتعلّقت بعُشرة[4] فانشقت ، وفتح النحيين ، فطعم أهل الماء فنقصا .

ثم قدم علىٰ حيّ المرأة وهم خُلُوف[5] ، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ، ودفع إليها هديتها ، فقالت : أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرِّب بعيداً ، ويبعِّد قريباً ، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين ، وأن أخي يراعىٰ الشمس ، وأن سماءكم انشقت ، وأن وعاءيكم نضبا ! !

فقدم الغلام علىٰ مولاه فأخبره ، فقال : أما قولها : إن أبي ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً ، فإن أباها ذهب يخالف قوماً علىٰ قومه ، وأما

---

(١) أي : حلمات الضرع .
(٢) أي : حلمات ضرع الناقة .
(٣) أي : نوع من البرود ، مفردها بردة .
(٤) أي : نوع من الشجر ، كبير الحجم ، يتميز بصمغة الحلو .
(٥) أي : غائبون .

قولها : ذهبت تشق النفس نفسين ، فإن أمها ذهبت تَقْبَل امرأة نفساء[1] ، وأما قولها : إن أخي تراعىٰ الشمس ، فإن أخاها في شَرْح[2] له يرعاه فهو ينظر وجوب[3] الشمس ليروح به ، وأما قولها : إن سماءكم انشقت ، فإن البُرد الذي بعثتُ به انشقّ ، وأما قولها : إن وعاءكم نضباً ، فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا ، فاصدقني!

قال : يا مولاي ، إني نزلت بماءٍ من مياه العرب ، فسألوني عن نسبي ، فأخبرتهم أني ابن اعمك ، ونشرت الحلّة ، فانشقّت ، وفتحت النحيين ، فأطعمت منهما أهل الماء ، فقال : أولىٰ لك[4] .

ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام ، فنزلا منزلاً ، فخرج الغلام يسقي الإبل فعجز ، فأعانه امرؤ القيس ، فرمىٰ به الغلام في البئر ، وخرج حتىٰ أتىٰ أهل المرأة بالإبل ، وأخبرهم أنه زوجها ، فقيل لها : قد جاء زوجك ، فقالت : ما أدري أزوجي هو أم لا ، ولكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذَنبها ، ففعلوا ، فأكل ما أطعموه ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً[5] ، فسقوه ، فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، ففرشوا له ، فنام .

فلما أصبحت أرسلت إليه : إني أريد أن أسألك ، فقال : سلي عما شئتِ ، فسألته فلم يُعجبها جوابه ، فقالت : عليكم العبد فشدّوا أيديكم به ففعلوا .

---

(١) أي تعمل عمل القابلة في توليد المرأة الحامل .
(٢) أي : الإبل السائبة .
(٣) أي : غروبها .
(٤) أي : توعده وهدده .
(٥) أي : حامضاً .

قال : ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر ، فرجع إلىٰ حيّه ، فقالت : والله ما أدري أو زوجي أم لا ؟!

ولكن انحروا جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها ، ففعلوا ، فلما أتوه بذلك قال : وأين الكبد والسَّنام والملحاء[1] ؟ وأبىٰ أن يأكل ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً ، فأبىٰ أن يشربه وقال : فأين الصريف[2] ، والرثيتة[3] ، فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، فأبىٰ أن ينام وقال : افرشوا لي فوق التلْعة[4] الحمراء ، واضربوا عليها خباء .

ثم أرسلت إليه : هلمَّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث ، فأرسل إليها أن سلي عما شئت ، فسألته ، فأعجبها جوابه ، فقالت : هذا زوجي لعمري ، فعليكم به ، واقتلوا العبد ، فقتلوه ودخل امرؤ القيس بالجارية .

* وهكذا نتابع المسيرة لنتبين أحداثاً كثيرة تدل علىٰ ذكاء النساء ، من ذلك ما رواه ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قال : وفدت (عزَّة) و(بثينة) علىٰ عبد الملك بن مروان فلما دخلتا عليه انحرف إلىٰ (عزة) وقال لها : أنتِ عزة كثير ؟ قالت : لست لكثير بعزة ولكني أم بكر الضمرية ، قال : أتروين قول كثير فيك ؟

لقد زعمت أني تغيرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمي والخليقة كالتي ... عهدت ، ولم يخبر بسرّك مخبر

قالت : لست أروي هذا ، ولكني أروي غيره ، حيث قال :

---

(١) أي : اللحم الممتد من الصلب إلىٰ العجز في البعير .
(٢) أي : الحليب الحار ساعة يُحلب .
(٣) أي : اللبن الحليب يصب عليه اللبن الحامض فيروب من ساعته .
(٤) أي : الأرض المرتفعة .

كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو يمشي بها العصم زلّتِ
صفوحاً فما تلقاك إلا بحيلةفمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت

ثم عطف علىٰ بثينة فقال لها : ما رأىٰ جميل حين لهج بذكرك بين النساء كلهن ؟

قالت : الذي رأىٰ فيك الناس حين جعلوك خليفة بين رجال العالمين ! !

فضحك حتىٰ بدت سن له سوداء ، كان يخفيها ، وأجزل جائزتهما وقضىٰ حوائجهما .

ثم ينقل الإمام قصةً أخرىٰ لنستدل بها علىٰ سرعة وحسن جواب النساء الذكيات ، فيقول : مرَّت امرأة بقوم من بني نمير فرشقوها بأبصارهم وأداموا النظر إليها ، فقالت : قبحكم الله يا بني نمير ، فو الله ما أخذتم بقول الله تبارك وتعالىٰ :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

ولا بقول الشاعر ـ وهو جرير ـ :

فغضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فخجل القوم مما قالت وأطرقوا[1] .

* وينقل الإمام السبكي قصةً عن ذكاء أم الإمام الشافعي فيقول :

كانت أم الشافعي رضي الله عنه باتفاق النّقلة من العابدات القانتات ، ومن أذكىٰ الخلق فطرة ، وهي التي شهدت هي وأم بشر المريسي بمكة عند القاضي ، فأراد أن يفرّق بينهما ، ليسألهما منفردتين عما شهدتا به

---

(١) أخبار النساء : ٣٤ و١٤٨ .

استفساراً ، فقالت له أم الشافعي : أيها القاضي ليس لك ذلك ، لأن الله تعالىٰ يقول :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فلم يفرّق بينهما[1] !!

* وأما الإمام أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ فقد أفرد في كتابه (الأذكياء) باباً مستقلاً عنوانه : (طرف من أخبار النساء والمتفطنات) أورد فيه عدداً من القصص والأحداث التي تدل علىٰ ذكاء النساء وعلىٰ سرعة وحسن جوابهن ننقل منها :

عن محمد بن معبد الغفاري قال : أتت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت :

يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه ، وهو يعمل بطاعة الله ، فقال لها : نِعْمَ الزوج زوجك ، فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب ، فقال له كعب الأسدي : يا أمير المؤمنين ، هذه المرأة تشكو زوجها من مباعدته إياها عن فراشه ، فقال له عمر : كما فهمت كلامها فاقض بينهما ، فقال كعب : عليّ بزوجها ، فأتي به ، فقال له : إن امرأتك هذه تشكوك ، قال : أفي طعام أو شراب ؟ قال : لا ، فقالت المرأة :

يا أيها القاضي الحكيمُ أرشده ... ألهىٰ خليلي عن فراشي مسجده
زهّده في مضجعي تعبُّدُه ... نهاره وليله ما يرقدُه
ولستُ في أمر النساء أحمدُه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ : ٢/ ١٨٠ .

فقال زوجها :

زهدتُ في فراشها وفي الحَجلْ إني امرؤٌ أذهلني ما قد نَزَلْ
وفي سورة النمل وفي السّبع الطّول وفي كتاب الله تخويفٌ جَلَلْ

فقال كعب :

إن لها حقاً عليك يا رجُلْ تصيبُها في أربعٍ لمن عَقَلْ
فأعطها ذاك ودع عنك العلَلْ

ثم قال : إن الله عز وجل قد أحلَّ لك من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة ، قال عمر : والله ما أدري من أي أمريك أعجب ، أفمن فهمك أمرها ، أم من حكمك بينهما ، اذهب فقد وليتك قضاء البصرة!!

. . . . وقال أبو الحسن المدائني : دخل عمران بن حطان يوماً علىٰ امرأته ، وكان عمران قبيحاً ذميماً قصيراً ، وقد تزينت ، وكانت امرأة حسناء ، فلما نظر إليها ازدادت في عينه جمالاً وحسناً ، فلم يتمالك أن يديم النظر إليها ، فقالت : ما شأنك ؟ قال : لقد أصبحت والله جميلة ، فقالت : أبشر فإني وإياك في الجنة!!

قال : ومن أين علمت ذلك ؟

قالت : لأنك أُعطيت مثلي فشكرت ، وابتليت سلامته بمثلك فصبرت ، والصابر والشاكر في الجنة .

. . . . وحدثنا ابن الشيظمي قال : حججت في سنة قحطة جدبة ، فبينا أنا أطوف بالكعبة ، إذ أبصرت جارية من أحسن الناس قدّاً وقواماً وخلقاً ، وهي متعلقة بأستار الكعبة تقول :

إلهي وسيدي ، ها أنا أمتك الغريبة وسائلتك الفقيرة حيث لا يخفىٰ

عليك بكائي ، ولا يستتر عنك سوء حالي ، قد هتكت الحاجة حجابي وكشفت الفاقة نقابي ، فكشفت وجهاً رقيقاً عند الذل ، وذليلاً عند المسألة ، طال وعزتك ما حجبه عنه ماء الغناء وصانه ماء الحياء ، قد جمدت عني كف المرزوقين ، وضاقت بي صدود المخلوقين ، فمن حرمني لم ألمه ، ومن وصلني وكلته إلىٰ مكافأتك ورحمتك ، وأنت أرحم الراحمين .

قال : فدنوت منها فبررتها ، ثم قلت لها : من أنت ؟ وممن أنت ؟

فقالت : إليك عني ، من قل ماله ، وذهب رجاله كيف يكون حاله ، ثم أنشأت تقول :

بعض بناتِ الرجال أبرزها ... الدهر لما قَدْ ترىٰ وأخرجها
أبرزها من جليل نعمتها ... فابتزّها ملكها وأحوجها
وطالما كانت العيونُ إذا ... ما خرجت تستشف هودجها
إن كان قد ساءها وأحز ... نها فطالما سرّها وأبهجها
الحمد لله ربّ معسرة ... قد ضمن الله أن يفرجها

قال : فسألت عنها ، فأخبرت أنها من ولد الحسين بن علي رضوان الله عليهم أجمعين .

. . . . وقال إسماعيل بن حمادة بن أبي حنيفة قال : حدثنا علي بن القاسم القاضي قال : سمعت أبي يقول : كان موسىٰ بن إسحاق لا يُرىٰ مبتسماً قط .

فقالت له امرأة : أيها القاضي ، لا يحل أن تحكم بين اثنين وأنت غضبان .

قال : ولم ؟

قالت : لأن النبي ﷺ قال : « لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان »[1] فتبسم[2]!!

هذه طائفة من القصص والأحداث نقلناها من كتب التراث ، والتي فيها الكثير الكثير ، وكلها تدلُّ أن الإنسان سواءً كان ذكراً أو أنثىٰ ، ميّزه الله تعالىٰ عن المخلوقات الأخرىٰ بأن أكرمه بالعقل ، والمشكلة الرئيسية هي أن يستخدم الإنسان عقله ، وفي أي مجال! ؟

(١) رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٩٨٦٦) ، وللحديث روايات عديدة في كتب الصحاح والأسانيد والسند .

(٢) للتوسع يراجع كتاب الأذكياء : ٢٣٦ـ٢٦٣ .